

مشتعله (قد علم كيف يُرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه).

و إذا كان الزمخشري قد جعل على المعاني والبيان كالأصلين لدراسة كتابه فإن هذه اللمحات التي أشار إليها من دقائقه، وأنه لحق ألا يعرف أسرار الكلام إلا من كان مشتعل القريحة وقادها، دراهم فعل كاللمحة، منتبها المرمزة طالما دفع إلى مضايق الكلام، ووقع في مداحضه.

على أن من التفسير نوعا لا يحتاج إلى كل هذا، وهو التفسير النقلي الذي يعتمد على الآثار المنقولة، لكن الطريقة التي

نهجها جارا في التفسير، وهي طريقة متأخرة، بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة تحتاج إلى علم غزير، مع فطرة سليمة، وهذا ما كان عند الزمخشري، ولذلك جاء تفسيره سجلا لكثير من المباحث البيانية، واللغوية، والنحوية، ويرى ابن خلدون أنه مبني على علم البيان (و هو كله مبني على هذا الفن وهو أصله) غير أن اعتزال الزمخشري وإتيانه بالحجاج على طريقة أهل العدل والتوحيد جعل مخالفي المعتزلة ينفرون منه بعض النفرة.

وقد أحدث هذا حركة بلاغية واسعة النطاق حول آيات الكتاب الكريم، فقام غيّر واحد من أهل السنة الأياد، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة، ومن أشهر من كتب في ذلك شرف الدين الطيبي من أهل توريث من عراق العجم، وبين أيدينا كتاب الانتصاف لناصر الدين أحمد بن المنير السكندري، وقد كانت عنايته متوجهة إلى أن يرد على الزمخشري في العقائد، ولكن ذلك لم يمنعه أن يمتدحه فيما أتى به من وجوه البلاغة ومن ذلك ما كتبه تعليقا على كلام الزمخشري عند قوله تعالى: "فأاقها" لباس الجوع والخوف" قال صاحب الانتصاف: (هذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالحبر).

وهي شهادة لها قدرها، إذ هي من ناظر في العيوب قبل المحاسن، وباحث عن العثرات لا عن الحسنات.